خامساً : مبدأ الحوار واحترام الآخر

من الحوار إلى وعي الحوار

أ. د. حليم أسمر (*)

منذ فجر الإنسانية، يتجلى فعل الإنسان وسيرورة حياته، هذا الفعل وتجلياته يكاد يشمل تاريخ الإنسانية، وإذا تكلمنا على هذا الفعل لا بدّ من التمعّن بمعنى الفعل والفاعلية ومستويات هذه الفاعلية (نظرياً وعملياً).

والفعل الإنساني يسبق النظر دائماً، ونكاد نقول بأن تاريخ الإنسانية يتلخص بمقولة (العمل والنظر) أي من الواقع إلى الفكر ومن الجزيء إلى الكلي ومن المادي الحياتي إلى المعنوي.

وفي توضيحنا لمبدأ «الحوار واحترام الآخر» نكون ضمن مجال الحياة المعنوية الأخلاقية، حياة ما يجب أن يكون ، وقاعدة الانطلاق هي الحياة الواقعية الموجودة، وضمن هذا المبدأ نستطيع العثور على مفردات مثل : الأنا – الأنت – الذات والموضوع – الوجود والماهية – الحرية – المسؤولية – الالتزام – الكرامة – الإنسانية – الأمن – الشفافية – الاختلاف – الصراع – احترام الصراع – جدل العنف واللطف – التحرر – مديح الاختلاف – اختلاف المديح – الانفتاح – الانغلاق – التقنية – الإبداع – وسائل الاتصال الحديثة ..... وكل هذه المفردات تحتاج إلى تدقيقٍ وتمحيصٍ عميقين كيلا نقع في مصيدة السطحية والاجتزاء.

(*) رئيس قسمي الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب، الجمهورية السورية.

obeikandl.com

وإذا دققنا في التاريخ يتجلى لنا مبدأ الحوار والمحاورة والجدل والمجادلة والمناظرة، ويكاد يشمل تاريخ البشرية بأكمله، ويتجلى هذا المبدأ من الناحية الإيجابية عندما تتقابل الأنا مع الأنا والأنت مع الأنت، ومن الناحية السلبية عندما ينحو هذا المبدأ باتجاه الإلغاء والاستعباد، ودفاتر البشرية لا تخلو من إلماحات إلى أنّ البشرية عاشت هذا المبدأ سواء عن وعي أو عن غير وعي، فالمدقق بمكتشفات أوغاريت، مثلاً، يرى احترام الآخر، بغضّ النظر عمّن يكون ، يتجلى من خلال القول المأثور أو الحكمة القائلة : « نحن لا نحقر إلهاً لا نعبده ».

ودلالة هذا النص تكفي لإعطائنا فكرة هامة عن تجلّي مستوى حضاري، ليس بالقليل، عند الكنعانيين وأهل الحاضنة الشرقية برمتها.

والمدقق بنصوص الحكمة القديمة ،يتجلّى له مدى إنسانية الحضارة الشرقية، فصيغة التحبّب التي كانت مستعملة في ذلك الوقت تعطي صورة عن نمط التربية ونمط التعامل والموقف من الآخر، ففي حِكَم (أحيقار) الحكيم (في زمن الدولة الآشورية) صورة عن هذا النمط، ويتجلّى ذلك من خلال صيغة التحببّ « يا بني .. اسمع وافهم كلامي ... »، فالهدف من الحكمة ونصوصها، كان هدفاً تربوياً حوارياً ... والشرق يعج ويضج بالكثير من الحوادث والأعلام الذين حاولوا أن ينحو هذا المنحى ... سليمان الحكيم ولقمان، والرسل والأنبياء الذين كانت الحكمة ضالتهم المنشودة، فالسيد المسيح كان يحاور الناس ويجادلهم حتى دعي تلاميذه بالحواريين، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تؤكد الحوار: « وجادلهم بالتي هي أحسن ».

ولا نغفل التراث اليوناني المتأثر بالشرق، فنرى الكثير من الفلاسفة اليونان الذين أخذوا عن الشرق وحاوروا الشرق وأهله، ولم ينكروا ذلك، حتى إن أفلاطون، شيخ فلاسفة اليونان، دعى كتبه ومؤلفاته بـ (المحاورات)، وكانت هذه المحاورات تدور حول قضية أو عدة قضايا، وتهدف إلى أهداف واضحة يصل إليها المتحاوران من خلال المجادلات الفكرية التي تدور بينهم،

أي أنّ الحوار هنا وسيلة لا غاية ... وإلى الآن، لينج أي حوار لابد من اعتباره وسيلة نصل من خلاله إلى الأهداف المرجوة على الصعيد المادي والمعنوي.

وهنا يخطر لنا تساؤلات متعددة : ما معنى الحوار ؟ مَنْ نحاور ؟ كيف نتدرّب على السؤال ؟ وبعمق أكثر : هل الحوار مطلب إنساني ناتج عن اجتماعية الإنسان وعن علاقته بالآخر ؟ ومن هذا الآخر ؟ هل هو الوجود ،الطبيعة،الكون ،اللّه .....هل هو القوى المرئية واللامرئية ؟.

قد يكون هذا الآخر (الذات الإنسانية).

ويتجلى الحوار بخطوته الأولى، على أنه مطلب شخصي ذاتي قبل أن يكون مطلباً اجتماعياً إنسانياً ... كيف يجب التدّرب على أن أحاور ذاتي لكي أخطو أولى الخطوات باتجاه حوار الآخر، ومن ثمَّ : الحوار مع الأفراد في قضايا اجتماعية وثقافية متنوعة، والحوار مع الجماعات المثقفة والمختلفة عن ذاتي، وعلى كافة المستويات، والحوار على مستوى الدول في القضايا والمصالح المختلفة، وتجلّى هذا الحوار بصيغ متعددة ... ثم الحوار على مستوى الأديان، والقوميات، والأحزاب ... وثمّة حوار من نوع شيق، وهو الحوار مع الطبيعة وتجليات هذا الحوار في إشكالية معقدة وتطوره إلى مستوى العداء مع الطبيعة ونستدل على هذا من خلال مشكلة البيئة ومدى أهمية هذه المشكلة بعد تفاقم تلوث البيئة على المستوى الطبيعي والمستوى الإنساني.

وتحيط الناحية السلبية بالحوار من جانب الإلغاء واستعباد الآخر، وتجلّى هذا عبر الاستعمار والفتوحات عبر التاريخ وانتهاك هدوء وسلامة الآخر واستباحة مقوماته وكينونته وجمالية حضارته، ومن خلال هذا الإلغاء يتجلّى اغتراب الإنسان وتشيؤه، ويظهر معنى اللاحوار في عالم الاحتلالات والانتدابات، حيث يُستباح كل شيء حتى أقدس المقدسات، ومجمل الاحتلالات، عبر التاريخ، كانت نتيجة فلسفات غازية مسيطرة شريرة، تحاول إلغاء كل ما هو مختلف عنها، وهذا الاختلاف نأخذه على كافة المستويات، فاستباحة الآخر تعكس مدى اغتراب مبدأ الحوار في عالم الشر والظلم والعنف، فقبائل اللويزيانا، مثلاً، تقطع الشجرة لتأكل الثمرة .

والاستعمار القديم والحديث، الثابت في المكان والانسيابي المتنقل الذي يجوب العالم في أيامنا المعاصرة، لا يهمه حوار ولا نقاش، وكل ما يهمه عولمة هذا العالم، وهنا وقعت الواقعة وصُمَّت الآذان، وعدنا إلى البهيمية وكأنّ الإنسانية لم تكتمل بعد ولم ننتقل من العنف إلى اللطف، وكيف يمكننا الانتقال وقد قامت الأرض ولم تقعد بعد نهاية القرن العشرين وأحداث الحادي عشر من أيلول 2001، حتى كادت تسدّ الآفاق، وأدلهمّ العالم وهو يقرع طبول الحرب، حرب لا مثيل لها ... ومنذ اليوم الأول ، رفعت شعارات تنم عن مدى لا إنسانية هذا القادم الجديد إلى العالم، ومنذ الساعات الأولى بدأت القيادات الأمريكية تحاول صياغة شعارات تخطط لمرحلة مستقبلية صعبة في تاريخ البشرية، ففي البداية طرحوا شعار : النسر النبيل، مَنْ لم يكن معه سيكون تحت مخالبه، وبعد أيام حاولوا تغيير الشعار إلى العدالة المطلقة، ثم قالوا بأن هذا اللفظ لا ينطبق مع العالم الإسلامي، لأن الله هو الوحيد المطلق، وحاولوا بعد ذلك إعطاءها تسمية بحدود العالم الإنساني وفنائه ومحدوديته.

ولا ننكر العلاقة الوطيدة التي تربط الحرية بالحوار، لأن الحوار هو تفتّح للحرية، تفتّح لطاقات الإنسان الإبداعية المنتجة ... الحوار تفتّح الوعي ومسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله وأفعاله، وبهذا يتجلّى السواء الأخلاقي للإنسان، فهذا المبدأ هام جداً على صعيد تجلي إنسانية الإنسان، لأن هذه الإنسانية لا تتجلى إلا من خلال الحرية ... وتتربع الحرية على قمة الهرم المعنوي الإنساني، أي الإصغاء للمحاور المختلف لا لنمارس فلسفة الإلغاء، إنّما للتعرف إلى هذا الاختلاف من موقع الاختلاف ذاته كيف لي أن أقبل المختلف بحواري له كيف أجيّر هذا المبدأ الإنساني لأصيغ شفافية الاختلاف؟

هذا مطلب هام في مطلع القرن الحادي والعشرين، القرن الذي حاولت أن تعصف فيه رياح الواحدية والقطبية وإلغاء الآخر وتدميره، أو النظر إليه على أنه لقمة سائغة أو مطلب نفعي، ثم أرمي به بلا حراك، في لجة الاستهلاك اللاوعي، اللافاعل ... وما يخيّم الآن على العالم ليس لهجة الحوار،

وإنما لهجة الحرب وإلغاء الحوار ولا مجال للحوار أو حتى السلام الضعيف، أي أن تكون مع النسر أو بين مخالبه، فقد تغيّرت معايير الحوار وتغيّر عما كان معروفاً في تاريخنا، ولا بدّ من أخذ مثال ساطع في (بيت الحكمة) ببغداد في عهد المأمون (القرن التاسع الميلادي).

وكان للمرأة في ذاك العهد دور في المباحثة والمناظرة، فزبيدة زوجة الرشيد كانت تنظم الشعر وتناظر الرجال في شتى نواحي الثقافة والفكر، وكذلك عائشة وعلية بنات الرشيد، أما العباسية بنت المهدي فكانت تشارك الرشيد مجلسه ليأنس برأيها.

وكانت المناظرات تعقد في قصور الخلفاء والأمراء ودور الولاة والعلماء، وكان المأمون يجلس كل أسبوع لمناظرة علماء زمانه، فكان لهذه المجالس دور كبير في تشجيع الحركة العلمية وازدهارها، لأن إشراف الخليفة المباشر عليها في جميع مجالاتها، أسهم في تعميق البحث والمناقشة.

وقد وضعت في تلك الحقبة أسس وقواعد المناظرة، فقد رويّ أن متكلّمين اجتمعا فقال أحدهما للآخر: هل لك في المناظرة، أجابه صاحبه: على شرائط: ألا تغضب، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تعجب، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تشغب، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك وإلا جوزت لي تأويل مثلها على مذهبي، ولا تحكم، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته...

كما أننا يمكن أن نجد في بيت الحكمة أصحاب الفلسفة من الديانات الأخرى يناظرون المسلمين في الأمور الدينية بكل صراحة، وبما يعتقدونه ويرونه أقرب إلى العقل والمنطق ..

ولعل الحرية التامة التي كانت تسود بيت الحكمة قد شكلت عاملاً مؤثراً في انتشار هذه الظاهرة، وما يؤكد هذا أنّ من بين مَنْ تولّوا بيت الحكمة وأشرفوا على حركة الترجمة فيه هم من السريان واليهود وغيرهم ... وأمام هذه المأثرة العربية، والتي لا تعدّ الأولى أو الأخيرة، لا بدّ أن نقف

صامتين متأملين بمفردات هذه الحضارة وتجلياتها النبيلة، وربما افتقد العالم المعاصر مثل هذه المآثر...

ويبقى مبدأ الحوار من المبادئ المنشودة، يبقى حلم البشرية المعاصر أمام معاول التهديم والتشويه التي تلفّ هذا العالم من قبل مَنْ امتلك القوة والجبروت التقني المعاصر، والحوار دائماً طموح لإيجاد ملتقى يوحّد بين الحضارات وحتى مع القوميات والأديان ... والمطلوب اليوم الحوار الشامل وعلى كافة المستويات من قوميات وأمم ومذاهب وفرق وملل ونحل، ويعوّل على هذا الحوار الكثير من الأمور المستقبلية والكثير من الأفكار التي سترسى لاحقاً الأرضية للانطلاق نحو الآخر، ونحو المختلف، وقد بدأت طلائع هذا التوجه في سورية منذ فترة ليست بالقليلة وقطعنا أشواطاً ملحوظة فيه على كافة الصعد وحتى مع العلاقات الخارجية بيننا وبين الدول الصديقة والمجاورة والشقيقة، وهذا الطموح طموحٌ لجعل البحر المتوسط بحر سلام وحوار... وينبغي أن ينتقل الحوار إلى فلسفة حياة، فلسفة تشمل الموقف من الحياة على أسس وركائز إنسانية، ومن هذا المنطلق نلتقي استراتيجياً بفلسفة السلام، هذه الفلسفة التي أرسى دعائمها الرئيس الخالد حافظ الأسد، ويتابع أعباءها سيادة الدكتور بشار حافظ الأسد.

وقد تجلى ظهوره الحقيقي في المحافل الدولية وبفترة وجيزة جداً، فالكاريزما لا تحتاج إلى زمن طويل، وإنما تحتاج إلى موقف من المرحلة الراهنة التي يمرّ بها العلم، فالسلام والحرية والعدالة، ومن ثمّ الحوار، مبدأ استراتيجي اتخذناه فلسفة حياة، وهذه الحياة تكتمل يوماً بعد يوم بعيداً عن أجواء القهر والتعسف والظلم والإلغاء، وبعيداً عن كل ضروب إلغاء الحرية وشرذمة كرامة الإنسان وشفافيته.

ومن هنا، ينبغى أن يناقش مبدأ الحوار واحترام الآخر من خلال الإنسان والحفاظ على كرامته وخصوصيته بغض النظر عن الظروف الدولية التى يمر بها العالم.